

نحو عالم أفضل

ألف هذا الكتاب «برتراندرسل»

ترجمة الاستاذ دريني خشبة وترجمة الاستاذ عبدالكريم أحمد.

يقول المترجم ولد برتراندرسل وفي فمه معلقة من ذهب فهو ابن لورد واسع الثروة مات وابنه - برتراند- في الثالثة من عمره كما توفيت أمه قبل ذلك بسنة تقريبا.. لكن الطفل لم يشعر قط بمرارة اليتيم لأنه نشأ في قصر جده

هذا الذي عاش في برج عاجي كان يطب لأدواء الإنسانية حتى قال نقاده: كيف؟ إنه لم يتمرس بالأمها ولم يشق بما شقيت به من تجارب ومحن.

وهل الأطباء الذين يعالجون أمراض الناس، يفعلون من منطلق إصابتهم بها؟

لقد ورث رسل عن أبيه حرية الفكر.. لقد تمسس الأب لكل الآراء التي كانت تزلزل المجتمع في أواخر القرن التاسع عشر، كالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية، وحق المرأة في الانتخاب، وإباحة الطلاق، وحرية الاعتقاد، وضبط النسل، وإلغاء المدارس التبشيرية.. إلخ.

لقد نسي النقاد عنصر الوراثة.

ولبرتراندرسل عندي، بد

لقد عاش عمره، يكن لمصر حبا خاصاً.

كانت مربيته الألمانية تندد بالإنجليز الذين دخلو يحتلون مصر بدون وجه حق.. وأن وعودهم بالجللاء، هباء فكان يشور عليها في البداية ولكنه في النهاية اقتنع بصحة ما ذهبت إليه. وهنا حزن حزنا شديدا على مصر ولمس خداع مواطنيه ومماطلتهم وعزا ذلك إلى الخطأ والانحراف في التربية التي يتلقاها الانجليز في مدارسهم وهم أطفال.

وكذلك يعزو الحروب إلى سوء مناهج التعليم في مدارس الأمم جميعا.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى بويلاتها، مما أحزن «رسل» على البشرية، وراء وضع هذا الكتاب فقد خلا إلى نفسه ليضع خطة عملية لوقف هذه المجزرة بعد تشخيص أسبابها، وتشخيص علل البناء الاجتماعي في العالم كله فجاء هذا الكتاب دعوة إلى التسامى من خلال المعرفة والفن والخير.

يقول «رسل» (إن القتال في سبيل الحرية اقتضى أن يكون الناس أقسى قلوبا وأكثر تباعدا بعضهم عن بعض، ولا ينتظر أن يزول هذا الأثر تماما في المستقبل، وإذا أردنا أن ينمو مجتمع تدب فيه الحياة فلامناص من أن نغير نظامنا من أساسها بحيث تتضمن احترام الفرد وحقوقه.. الأمر الذي يتطلبه العصر الحديث).

وكان طبيعيا أن يؤيد «رسل» نظرية «مارتين لوثر» التي تقول أن الخطأ جائز على كل إنسان وأن رجال الدين غير معصومين من الخطأ، وأن لكل فرد الحق في أن يحكم عقله فيما يؤمن به.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأي أن نشأ مع مضي الوقت الاعتقاد بأحقية الشخص في اختيار عقيدته الدينية دون تدخل من أى سلطة، وهكذا بدأت معركة الحرية في ميدان الدين... في أوروبا... وفي هذا الميدان كان انتصار الحرية أتم منه في أى ميدان آخر.

ظل «رسل» يلهج بالحرية حتى أنه في الفصل الذي عقده عن (الدولة) قال إن الحرب إذا ما فتشت خطرا وشيك الوقوع في أى يوم فستظل الدولة شبعا مخيفا تضحى في بعض الأحيان بحياة الفرد، وتضحى دائما بارتقائه الذي لا يضح أن يتقيد بقيد، في سبيل النضال العقيم من أجل السيادة بسبب التنافس بينها وبين الدول الأخرى.

ألا إن أشع أعداء الحرية، سواء في الشؤون الداخلية أو الشؤون الخارجية، هي الحرب.

لقد أدان الحلفاء والمجتلرا منهم بالطبع بأنهم شركاء الألمان في تأجج الحرب لأنهم حاولوا أن يفرضوا على الألمان الـ Statnsguo أى الوضع الراهن.. ومن هنا كانت رغبة الألمان في اشعال الحرب لقلب هذا الوضع الراهن رأسا على عقب، ومن هنا أيضا كانت رغبة الحلفاء في الحرب للمحيلولة دون أن يكون قلب الوضع الراهن في صالح الألمان.

ويندد «رسل» باستنزاف الطبيعة في قوله (إن أكبر الشعوب مدنية معرضه للانقراض تدريجيا أن كل مدينة كبيرة هي بؤرة من بؤر الفساد للجنس البشرى. وقد كتب سير هـ. لبولين سميث عن حالة مدينة لندن من هذه الناحية مدعما ما كتبه، بإحصائيات مستفيضة.

ولاشك أن ما ذكره يصدق على حالات أخرى. وهو يصدق أيضا عن مصادر المادة. والعالم يستهلك المعادن، والغابات البكر وحقول الغلال استهلاكاً مسرفاً ستكون نتيجته التي لاشك فيها التسبب للأجيال المقبلة في عنت شديد).

ومن أروع ما كتب رسل رسم صورة (المربي الحقيقي) الذي لا يعمل على أعداد الطفل لتحقيق أهداف تفرضها الدولة أو أي سلطة أخرى غريبة عن الطفل نفسه.

إن المربي الحقيقي هو الرجل الذي يتوفر لديه الاحترام لإنسانية الطفل فلا «يصوغ» الأطفال.. إنه يحس بوجود شيء قدسى في كل حيّ وخاصة في الأحياء من البشر.. وفوق كل شيء في الأطفال.. شيء علوي لا يعرف له كنها ولا حدوداً.. شيء فردي فريد في قيمته هو جوهر الحياة النامي قطعه مجسمة من كفاح الدنيا الأبكم... إن هذا الرجل يحس خضوعاً ومذلة في حضرة الطفل لا يعرف لهما سبباً.. خضوعاً لا يسهل على العقل تفسيره... ولكنه أقرب إلى الحكمة من تلك الثقة بالنفس التي يبديها الكثيرون من الآباء والمدرسين.

ومن الطريف اقتراح «رسل» لتدعيم العلاقات الطيبة بين الدول، فإن إحدى الخطوات الأولى التي يجب أن تتخذ هي وضع جميع أنواع تعليم التاريخ تحت إشراف لجنة دولية محايدة خالية من التحيز الذي تمليه الوطنية، الذي تعمل كل دول العالم على استشارته في الوقت الحاضر.

ويحارب «رسل» القولية في التعليم.. إن الطفل روح حرة من الجرم وضعها في قالب. إن هذا ضد الحياة (إن التعليم الذي أساسه وجوب تصديق كل ما يدرس سرعان ما يقود المرء في خطوات سريعة إلى فساد القوى الذهنية، ولا يمكن المحافظة على الحد الأدنى الضروري من التقدم البشري إلا بالبقاء على روح البحث الحر).

إن الفصول الكبيرة والمدرسين المرهقين، وهما من آثار الاقتصاد غير السليم هما السبب الذي يجعل الطاعة تبدو ضرورية في المدارس.

إن الذين لم يجربوا التدريس يعتقدون أن المدرس يستطيع أن يعمل عدداً من الساعات كأنه كاتب في مصرف. وتكون النتيجة أن يصاب المدرس بالاعياء الشديد والانفعال العصبي ويصبح

ولاحيلة لديه إلا أن يؤدي عمله بطريقة آلية. ولكن التدريس لا يمكن أن يكون عملاً آلياً إلا إذا فرضنا الطاعة على التلاميذ.

إن المدرس الذي يجد في عمله لذة حقيقية، لا يغيب عن باله حاجات التلميذ العقلية. وهنا تنشأ بين المدرس والتلميذ علاقة طيبة بدلا من روح العداوة. وكل ما يلزم للوصول إلى هذه النتيجة هو زيادة الانفاق للحصول على مدرسين يتوفر لديهم وقت فراغ أوسع وميل طبيعي لمهنة التدريس.

ويندد «رسل» بالصراع المحموم الذي يدور حول الامتحانات والشهادات والدرجات في النظام التقليدي المقيم.. الذي لا يترك للدارس وقتاً للتفكير أو الاستمتاع العقلي فينتهي الأمر بأكثر التلاميذ ذكاء إلى النفور من الدراسة والرغبة في نسيانها والخروج إلى حياة العمل فإذا بالآلة الاقتصادية تطحنهم بعد أن تكبت جميع رغبتهم التلقائية وتحطمها.

ورسل الذي يتهم في عقيدته من بعض الناس، يقول:

(إن الدين أكثر أهمية من السياسة. وإن أئمة الدين يجب أن يتزهوا عما يد نسهم تزها تاما.. وهذا أمر أكثر لزوما لهم منه للساسنة).

ويقول:

(يمكننا أن نقول إن الناس يصدرون في أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بينها وبين بعض كبير فرق.. إلا أنها تتميز من بعضها تميزا يكفي لأن يجعلنا نطلق عليها أسماء مختلفة.. والأصول التي أعنيها هي:

الغريزة العقل والروح.

وحياة الروح من بين هذه الأصول الثلاثة هي التي تصنع الدين.

ويقول: (نحن في حاجة إلى شيء كلي وغير شخصي أولا وقبل كل شيء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردي، وهذا هو ما تمتحننا إياه حياة الروح).

إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة وترد الشارد إلى مكانه في الحياة الإنسانية.

إن الذين ولجوا يوماً في عالم الفكر يؤمنون بأن السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا إلى هذه الدنيا إلا عن طريق الروح.

كتاب بعيد الأعماق... واسع الأفاق، جميل الرؤى، إنساني النزعه، صائب الرأي والفكره ولمثل هذا أو بعضه، تقرأ الكتب..

يكفى كتاب «رسل» أن الدول الكبرى، بعد الحرب العالمية الثانية، كان هذا الكتاب أشبه ببرنامج لها في كل شيء.. حتى في المساواة التامة بين الرجل والمرأة.. فلقد أقاموا مجلس الأمن على ما يقرب من الأسس التي اقترحتها «رسل» وأخذوا يعالجون مواضع الخلل في بنائهم الاجتماعي، وأباحوا الطلاق وإن جعلوه مديناً بعيداً عن الدين، وعملوا على معونة الطبقات الممتازة من أهل الفكر مخافة أن تنقرض لخوف أبنائها من الزواج بسبب عجزهم المادي عن مقوماته.. وأنشأوا البنك الدولي لإقراض الأمم المحتاجة أو المتخلفة لتنفيذ الإصلاحات العمرانية الكبرى في مختلف بقاع الأرض حينما تعجز الأمم منفردة عن تنفيذها وأخذوا يعالجون عيوب التربية في الأمم الراقية والأمم المتخلفة على السواء وأخذت تجارب التربية الأساسية تجري في كثير من بقاع العالم ومن جملتها مصر.

وأخذت مؤسسة اليونسكو تبث أضواء الثقافة وتنتشر نور العرفان على أسس عالمية تهدف إلى التبشير بالإخاء الإنساني بين أهل الأرض جميعاً.
وهكذا نتبين أننا أمام كتاب جامع بعيد الأثر.. والخطر.